الاختلاف في القراءات القرآنية

إياد سالم صالح
مدرس في كلية تربية سامراء
قسم علوم القران

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحابته ومن تبعهم الى يوم الدين، وبعد:

فلقد نال علم القراءات القرآنية بدقائقه كافة عناية علماء المسلمين منذ عصر النبوة حتى عصرنا هذا، وتمثلت هذه العناية بما تركه لنا سلفنا الصالح من مؤلفات كثيرة تناولت هذا العلم بجوانبه الصغيرة والكبيرة على حد سواء.

وكان من بين هذه الجوانب المهمة التي تناولها علماء المسلمين مسألة الاختلاف في القراءات القرآنية ومفهومهم لهذا الاختلاف، فهذا الموضوع من الأهمية بمكان، ويحتاج الى شيء من التفصيل والبيان، لأنه أمر يتعلق بجانب اعتقادي في حياة المسلم، إذ يجب على المسلم أن ينفي عن القرآن وقراءاته التناقض والاختلاف والتدافع والاضطراب كما وصفه تعالى بقوله :((أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً))[النساء:٨٢]، وقد تعرض هذا الجانب من الموضوع للطعن والتشكيك من لدن بعض المستشرقين المغرضين، وراحوا يبثون سمومهم ويرفعون أصواتهم بدعاوى باطلة يصفون القرآن وقراءاته بالتناقض والاضطراب.

وكان من أجرئهم المستشرق اليهودي جولد تسيهر[١] الذي وصف القرآن والقراءات بالاضطراب وعدم الثبات، إذ يقول: ((لا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافا عقيدياً ،أنه نص منزل، أو موحى به يقدم نصه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات كما نجد في نص القرآن.))[٢].

وهو يقصد هنا اختلاف القراءات كما صرح في كلامه بعد ذلك، ويقول في موطن آخر وهو يعرض للقراءات الواردة في قوله تعالى:

((الم، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ))[الروم:١-٣]، ويشير الى الاختلاف في قراءة(غلبت الروم وسيغلبون) بالبناء للمعلوم والمجهول فيهما، وأخذ يصف

القراءتين بالتناقض، إذ يقول: ((إنْ القراءتين متناقضتان في المعنى، المغلوبون في القراءة المشهورة هم الغالبون في القراءة الأخرى.))[3]، ولا غرابة من هذا المستشرق الذي صرح بأقبح من ذلك وأسفه، وهذا يدل على جهله في هذا الموضوع إنْ لم نقل فساد نيته وقصده السيئ في الطعن بالقرآن والقراءات، إذ يقول: ((وقد رأى قتادة أن الأمر بقتل النفس أو قتل العصاة في قوله تعالى: ((فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ))[البقرة: ٥٤]، هو من القسوة والشدة بحيث لا يتناسب مع الفعل فقرأ (فأقيلوا أنفسكم)، أي: حققوا الرجوع والتوبة من الفعل بالندم، وفي هذا المثال نرى وجهة نظر موضوعية كانت سبباً أدى الى القراءة المخالفة.))[4].

فهو يطعن بالقراءة المشهورة، ويصف قراءة قتادة ـ مع أنها شاذة[*] ـ بالموضوعية، وهو من جانب آخر يتهم القراء بالقراءة بالتشهي والاجتهاد، وكأن القراءة ليست سنة متبعة الأصل فيها التلقي والمشافهة لا الرأي والاجتهاد.

من أجل هذا كله كان بيان وجهة نظر علماء المسلمين في هذه القضية له أهميته البالغة في الدراسات القرآنية والعربية، لذا سوف اعرض بشيء من الإجمال أقوال هؤلاء لاضع القارئ المهتم بالدرس القرآني في تصور صحيح لهذا الموضوع.

ذهب جمهور علماء المسلمين إلى أن الاختلاف في القراءات هو اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض، وأن الاختلاف حاصل في الألفاظ المسموعة وليس في المعاني المفهومة، وبهذا صرح المهدوي (ت في حدود ٤٤٠هـ) حين عرض لحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أُنزل القرآن على سبعة أحرف، إذ قال: ((واختلف الناسُ في معنى الحديث اختلافاً كثيراً، فأكثرهم على أن معناه في الألفاظ المسموعة لا في المعاني المفهومة.))[6]

وقوله (اكثرهم) لا يعني أن القلة من العلماء قائلون بالتناقض أو التضاد أو التنافر في القراءات، بل لهم تفسيرات مغايرة لمعنى الحديث، فبعضهم فسر الأحرف السبعة باللغات، وبعضهم فسرها بالحلال والحرام والمحكم والمتشابه وغيرها.[7]

وبيَّنَ الداني (ت ٤٤٤هـ) ما ينبغي اعتقاده في القراءات، إذ يقول: ((وجملة ما نعتقده من هذا الباب وغيره من إنزال القرآن وكتابته وجمعه وتأليفه وقراءته ووجوهه ونذهب إليه ونختاره فإن القرآن منزل على سبعة أحرف كلها شاف كافٍ وحق وصواب، وأن الله تعالى قد خير القراء في جميعها وصوبهم إذا قرؤوا بشيء منها، وأن هذه الأحرف السبعة المختلف معانيها تارة وألفاظها تارة مع اتفاق المعنى ليس فيها تضاد ولا تناف للمعنى ولا إحالة ولا فساد.))[8]، وكان الداني من قبل هذا قد فصل القول في تعدد القراءات، وبين المعاني التي يشتمل عليها اختلاف القراءات، إذ قال: ((وأما على كم معنى يشتمل اختلاف هذه السبعة أحرف فإنه يشتمل على ثلاثة معانٍ يحيط بها كلها.

أحدها:ـ اختلاف اللفظ والمعنى واحد.

والثاني:ـ اختلاف اللفظ والمعنى جميع مع جواز أن يجتمعا في شيء واحد لعدم تضاد اجتماعهما فيه.

والثالث:ـ اختلاف اللفظ والمعنى مع امتناع جواز أن يجتمعا في شيء واحد لا ستحالة اجتماعهما فيه، ونحن نبين ذلك إن شاء الله.))[9]، ثم ساق من بعد ذلك القراءات ودلل على القواعد التي أصل لها حول هذا الموضوع[10].

وأفاد من هذا التأصيل الإمام ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) ولكن بشيء من التفصيل والبيان والاستقراء الأوسع، فيقول: ((وأما حقيقة اختلاف هذه السبعة الأحرف المنصوص عليها من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفائدته فإن الاختلاف المشار إليه في ذلك اختلاف تنوع وتغاير، لا اختلاف تضاد وتناقض، فإن هذا محال أن يكون في كلام الله تعالى، قال تعالى: ((أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً))، وقد تدبرنا اختلاف القراءات كلها فوجدناه لا يخلو من ثلاثة أحوال:

أحدها:ـ اختلاف اللفظ والمعنى واحد.

الثاني:ـ اختلافهما جميعاً مع جواز اجتماعهما في شيء واحد.

الثالث:ـ اختلافهما جميعاً مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء

واحد بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد.

فأما الأول فكان الاختلاف في (الصراط، وعليهم، ويؤده، والقدس، ويحسب) ونحو ذلك مما يطلق عليه أنه لغات حسب.[11]

وأما الثاني فنحو ((مالك، وملك) في الفاتحة،لأن المراد في القراءتين هو الله تعالى، لأنه مالك يوم الدين وملكه، وكذلك (يَكْذِبون، ويُكَذِّبون) لأن المراد بهما هم المنافقون، لأنهم يُكذِّبون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ويَكْذِبون في أخبارهم...

وأما الثالث فنحو (وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ) بالتشديد والتخفيف، وكذا (وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) بفتح اللام الأولى ورفع الأخرى، وبكسر الأولى وفتح الثانية ...فإن ذلك كله وإن اختلف لفظاً ومعنى وامتنع اجتماعه في شيء واحد فإنه يجتمع من وجه آخر يمتنع فيه التضاد والتناقض.))[12]

فحاصل ما ذكره ابن الجزري ومن قبله الداني أن اختلاف القراءات لا يلزم تناقضاً وتضاداً واضطراباً، وهذا ما قرره علماء المسلمين، بل ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) أن إجماع المسلمين منعقد على عدم تناقض القراءات أو تضادها، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً من أن المهدوي لا يقصد بقوله: (فأكثرهم) أن غيرهم يقول بالتناقض والتضاد، بل لا نزاع بين علماء المسلمين في أن القراءات لا تتضمن تناقضاً في المعنى ولا تضاداً كما يقول ابن تيمية: ((ولا نزاع بين علماء المسلمين أن الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض المعنى وتضاده، بل قد يكون معناها متفقا أو متقاربا كما قال عبد الله بن مسعود إنما هو كقول أحدكم أَقبِلْ وهلمَّ وتعالَ، وقد يكون معنى أحدهما ليس هو معنى الآخر لكن كلا المعنيين حق، وهذا اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض، وهذا كما جاء في الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنزل القرآن على سبعة أحرف، إن قلت غفورا رحيما أو قلت عزيزا حكيما فالله كذلك مالم تختم آية رحمة بآية عذاب أو آية عذاب بآية رحمة، وهذا كما في القراءات المشهورة...)).

ومن القراءات ما يكون المعنى فيها متفقا من وجه متباينا من وجه كقوله: (يَخْدَعُون ويُخَادِعون) و(يَكْذِبون ويُكَذِّبون)، و(لَمَسْتُم ولامَسْتُم)، و(حتى يَطْهُرْن ويَطَّهَّرن) ونحو ذلك فهذه القراءات التي يتغاير فيها المعنى كلها حق، وكل قراءة منها مع القراءة الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها، واتباع ما تضمنته من المعنى علما وعملا لا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى ظناً أن ذلك تعارض، بل كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من كفر بحرف منه فقد كفر به كله.))[13]، ثم يشير بعد ذلك الى أن أئمة علماء السلف وطوائف من أهل الكلام والقراء متفقون على أن الأحرف السبعة لا يخالف بعضها بعضاً يتضاد فيه المعنى ويتناقض، بل يصدق بعضها بعضاً كما تصدق الآيات بعضها بعضاً.[14]، ثم يشير بعد ذلك الى أن أئمة علماء السلف وطوائف من أهل الكلام والقراء متفقون على أن الأحرف السبعة لا يخالف بعضها بعضاً خلافاً يتضاد فيه المعنى، بل يصدق بعضها بعضاً كما تصدق الآيات بعضها بعضاً.

ونقل جملة من هذه الأقوال الإمام الزركشي (ت٧٩٤هـ) في البرهان والإمام السيوطي(ت٩١١هـ) في الإتقان[15] وهذا يدل على أن المراد بالاختلاف في القراءات القرآنية هو اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تناقض وتضاد، بل رجح الإمام ابن حجر العسقلاني هذا المعنى وقواه على غيره، إذ قال في شرح قوله(ص): (فاقرؤوا ما تيسر منه): ((أي من المنزل، وفيه إشارة الى الحكمة في التعدد المذكور، وأنه للتيسير على القارئ، وهذا يقوي قول من قال: المراد بالأحرف تأدية المعنى باللفظ المرادف، ولو كان من لغة واحدة، لأن لغة هشام بلسان قريش وكذلك عمر، ومع ذلك فقد اختلفت قراءتهما، نبه على ذلك ابن عبد البر، ونقل عن أكثر أهل العلم أن هذا هو المراد بالأحرف السبعة.))[16]

معنى هذا أن نزول القرآن، باختلاف قراءاته، لا يلزم منه تناقض ولا تضاد ولا تدافع بين مدلولات معانيه ولا يسبب اضطراباً واختلافاً بين آيات القرآن، بل كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية، يجب قبولها والإيمان بها والعمل بمقتضاها، وفي ذلك

يقول ابن الجزري: ((كل ما صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك فقد وجب قبوله، ولم يسع أحداً من الأمة رده ولزم الإيمان به، وأن كله منزل من عند الله إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية، يجب الإيمان بها كلها واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملاً، لا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى ظناً أن ذلك تعارض.))[17]

فمفهوم مصطلح (الاختلاف) في القراءات لا يعني التعارض والتباين كما يفهم هذا المعنى للمصطلح عند علماء الفقه، فالقراءات على اختلافها وتنوعها لم يتطرق إليها تضاد ولا تناقض، ولا تعارض وتباين كما يحصل ذلك في اختلاف وتنوع الفقهاء، والى هذا نبه الإمام الجليل ابن الجزري ــ رحمه الله ــ وفرق بين اختلاف القراء واختلاف الفقهاء، إذ يقول: ((وبهذا افترق اختلاف القراء من اختلاف الفقهاء، فإن اختلاف القراء كله حق وصواب نزل من عند الله وهو كلامه لا شك فيه، واختلاف الفقهاء اختلاف اجتهادي، والحق في نفس الأمر واحد، فكل مذهب بالنسبة الى الآخر صواب يحتمل الخطأ، وكل قراءة بالنسبة الى الأخرى حق وصواب في نفس الأمر، نقطع بذلك ونؤمن به.))[18]

فالاختلاف في القراءات حق لا تضاد فيه ولا تدافع بين معاني الآيات، وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ((أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ ولوْ كانَ منْ عندِ غيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فيهِ اخْتِلافاً كَثيراً) [النساء: ٨٢]، وما دل عليه إقرار النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمختلفين في القراءة بقوله: أصبتم، أو كلاكما محسن، أو أي ذلك قرأتم أصبتم، وما دلت عليه نقولات علماء المسلمين من أن إحدى مقاصد القراءات الشاذة تفسير القراءات المشهورة وتبيين معانيها، يقول الزركشي: ((قال أبو عبيد في كتاب فضائل القرآن إن القصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة وتبيين معانيها وذلك كقراءة عائشة وحفصة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر) وكقراءة ابن مسعود (والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما) ومثل قراءة أُبي (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فيهن) وكقراءة سعد بن أبي وقاص (وإن كان له أخ أو أخت من أم فلكل) وكما قرأ ابن عباس (لا جناح عليكم أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج) قلت وكذا قراءته (وأيقن أنه الفراق وقال ذهب الظن) قال أبو الفتح: يريد أنه ذهب اللفظ الذي يصلح للشك وجاء اللفظ الذي هو مصرح باليقين انتهى، وكقراءة جابر (فإن الله من بعد إكراههن له غفور رحيم) فهذه الحروف وما شاكلها قد صارت مفسرة للقرآن وقد كان يروى مثل هذا عن بعض التابعين في التفسير فيستحسن ذلك فكيف إذا روي عن كبار الصحابة ثم صار في القراءة عينها فهو الآن أكثر من التفسير وأقوى فأدنى ما يستنبط من هذه الحروف معرفة صحة التأويل على أنها من العلم الذي لا يعرف العامة فضله، إنما يعرف ذلك العلماء ولذلك يعتبر بهما وجه القرآن.))[19]

فإذا كانت القراءات الشاذة لا تقتضي تضاداً ولا تناقضا، إنما هي مفسرة ومبينة للقراءات المشهورة، فكيف بالقراءات الصحيحة التي تلقتها الأمة بالرضى والقبول، فهل من المعقول أن تتضمن تناقضاً واختلافا يقتضي التضاد يكون بها القرآن مضطربا متبايناً؟!.

إن هذا الكلام لا يصدر إلاّ من رجلٍ ساءت نيته وفسدت عقيدته، لانّ القرآن لا تناقض فيه ولا تباين ولا اضطراب، إنما هو آيات محكمات يصدق بعضها بعضاً، وإن تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات من دون تناقض وتضاد، وفي هذا يقول الشيخ الزرقاني (ت١٣٦٧هـ): ((إن تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات وذلك ضرب من ضروب البلاغة يبتدئ من جمال هذا الإيجاز وينتهي الى كمال الإعجاز، أضف الى ذلك ما في تنوع القراءات من البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله وعلى صدق من جاء به وهو رسول الله، فإن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي الى تناقض في المقروء وتضاد ولا إلى تهافت وتخاذل، بل القرآن كله على تنوع قراءاته يصدق بعضه بعضا ويبين

بعضه بعضا ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد في علو الأسلوب والتعبير وهدف واحد من سمو الهداية والتعليم، وذلك من غير شك يفيد تعدد الإعجاز بتعدد القراءات والحروف، ومعنى هذا أن القرآن يعجز إذا قرئ بهذه القراءة ويعجز ايضا إذا قرئ بهذه القراءة الثانية ويعجز ايضا إذا قرئ بهذه القراءة الثالثة وهلم جرا، ومن هنا تتعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه والحروف، ولا ريب أن ذلك أدل على صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه أعظم في اشتمال القرآن على مناح جمة في الإعجاز وفي البيان على كل حرف ووجه وبكل لهجة ولسان ((لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ))[الأنفال: ٤٢][٢٠]

إن الاختلاف والتنوع في القراءات يقوم مقام تعدد الآيات، وهوضرب من ضروب الإعجاز انفرد به هذا الكتاب الكريم، وإن الاختلاف في القراءات القرآنية فيه من البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على أن هذا القرآن بقراءاته كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه ((سلسلة واحدة متصلة الحلقات محكمة السور والآيات متآخذة المبادئ والغايات مهما تعددت طرق قراءته ومهما تنوعت فنون أدائه.))[٢١]

الهوامش

(١)هو مستشرق يهودي مجري الأصل، له العديد من المصنفات رحل الى سورية وفلسطين ومصر، وعين أستاذاً في جامعة بودابست (عاصمة المجر)، توفي سنة ١٩٢١م، ينظر: الأعلام ١/٨٤.

(٢)مذاهب التفسير الإسلامي ٤.

(٣)المصدر السابق ١٨.

(٤)المصدر السابق٥.

(٥)ينظر: مختصر في شواذ القراءات٦.

(٦)بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات ٢٤٠.

(٧)ينظر: الأحرف السبعة للداني ٥٧ــ٥٩، والإتقان١/١٣١ــ١٤١، والقراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية ٢٤ــ٢٩.

(٨)الأحرف السبعة ٦٠.

(٩)المصدر السابق٤٧.

(١٠)ينظر: المصدر السابق٥٠ــ٥١.

(١١)في الأحرف السبعة للداني٤٧ــ٤٨: ((السراط)) بالسين و(الصراط) بالصاد و(الزراط) بالزاي و(عليهم، واليهم، ولديهم) بضم الهاء مع إسكان الميم وبكسر الهاء مع ضم الميم وأسكانها و(فيه هدى وعليه كتر، ومنه ءايت، وعنه ماله) بصلة الهاء وبغير صلتها و(يؤده إليك ونؤته منها، وفألقه إليهم) بإسكان الهاء وبكسرها مع صلتها واختلاسها، و(أكلها، وفي الأكل) بأسكان الكاف وبضمها و(إلى ميسرة) بضم السين وبفتحها و(يعرشون) بكسر الراء وبضمها وكذلك ما أشبهه ونحو ذلك البيان والإدغام والمد والقصر والفتح والإمالة وتحقيق الهمز وتخفيفه وشبهه مما يطلق عليه أنه لغات فقط.))

(١٢) النشر ١/٥١.

(١٣) مجموعة الفتاوى ١٣/٣٩١ــ٣٩٢.

(١٤) ينظر: المصدر السابق ١٣/٤٠١.

(١٥) ينظر: البرهان ١/٢٢١، والإتقان ١/١٣٢ــ١٣٥.

(١٦) فتح الباري٩/٢٦.

(١٧) النشر ١/٥١.

(١٨) المصدر السابق١/٥٢.

(١٩) البرهان١/٣٣٦ــ٣٣٨.

(٢٠) مناهل العرفان١/١٠٥ــ١٠٦.وينظر: مقدمة تفسير التحرير والتنوير١/٥٤.

(٢١) مناهل العرفان١/١٣٠.